همسة في أذن عاق

عليك بالبر وإياك والعقوق

بقلم
فضيلة الشيخ
أ. د. فلاح بن إسماعيل مندكار
أستاذ العقيدة في كلية الشريعة بجامعة الكويت
والخطيب بوزارة الأوقاف
حفظه الله تعالى

تمهيد
قصة كتابة هذه الرسالة

سافرت إلى بريطانيا لإجراء عملية جراحية تمت ترتيباتها أثناء موسم الحج عام ١٤٣١هـ، حيث تم اللقاء مع الدكتور الجراح والذي كان ضمن رحلة الحج من بريطانيا.

وبعد دخول المستشفى لإجراء العملية، توطدت العلاقة بيني وبين الدكتور، وزارنا هو وزوجته حيث أسكن وأنا والعائلة في بريطانيا، وطال الحديث وتآلفت القلوب . وكان الاستغراب والإعجاب من تردد الأبناء والإخوان وزيارتهم لنا أثناء الرحلة والتي طالت وتعدَّت ستة أشهر ظاهر عليهما.

ودار بيننا حديث ونقاش عرفت من خلاله أثر الثقافة الغربية والسكنى بين الكفار وفي بلادهم على أهل الإسلام؛ فقد كان الدكتور الجراح ممن هاجر إلى تلك البلاد منذ نصف قرن، واستوطن وتزوج وبرز بين أقرانه في المجالات العلمية والطبية حتى غدا من أشهر الجراحين على مستوى أوربا كلها، ويأتيه الناس من بلاد شتى لإجراء العمليات الجراحية.

وكانت تغمره السعادة وأسرته حتى شاء الله لابنه الوحيد أن يتزوج بعد اختياره زميلة له تشاركه الدراسة في كلية الطب في بريطانيا في جامعة

كامبردج . وعمت السعادة الأسرة وخاصَّةً الدكتور وزوجته الدكتورة بعد أن منَّ الله على الابن بالذرية الذين ملأوا البيت وعموا الأسرة حياةً وسعادةً وأُنساً، حتى أيقن الجميع إلى شدة الحاجة إلى مثل هذا الجانب والتواصل الاجتماعي، وإلا فَلَمْ يكن ينقصهم شيء من زينة الدنيا ومادياتها.

ثم لما بلغ عدد الأحفاد ثلاثة جاء القرار من ذلك الابن الوحيد بالانتقال من قصر الأبوين الكبير وحديقتها الفسيحة - بل قل: غابة تحيط بالقصر - والسبب في الانتقال هو التفرغ لتربية الأولاد والاعتناء بدينهم وحفظهم للقرآن، الأمر الذي يتطلب مجاورة المسجد والمركز الإسلامي في تلك المدينة، ثم أكد أو برَّر رغبته بما زعمه أنه استفتى شيخاً في المملكة وأن جميع قراراته استفادها من فتوى ذلك الشيخ الجليل ووصاياه.

ومنذ ذلك اليوم والوالدان الكبيران في حال لا يُحسدان عليه، وخاصَّةً تلك الأم التي تقاعدت قبل ذلك بعام ونصف للتفرغ لأبناء ولدها حيث إن ابنها وزوجته يعملان في سلك الطب أيضاً . وكان من قراراته الجائرة - حرصاً على تربية الأولاد بزعمه -: أن تكون الزيارة لمنزل الجد والجدة ساعتين أو ثلاثة في كل أسبوعين فقط، على الرغم من شدة تعلق الجد والجدة بالأحفاد، والأحفاد بهما، حتى إن الابن كان ينتزع أولاده من عناقهما للجد والجدة عند المغادرة إلى منزلهما.

ومن أعجب ما سمعت من الأبوين المنكوبين أن سبب قلة الزيارة واتصال الأولاد أو بقائهم عند الجد والجدة خاصَّةً في أيام العطل؛ أنه على قناعة هو وزوجته أن قوة الاتصال وشدة العلاقة بين أبويه وبين أولاده قد بلغت مبلغاً عظيماً، ويخشى هو زوجته أن تؤثر هذه العلاقة على تربية الأبناء سلباً، وتقلل من رغبتهم في الدراسة الدينية وحفظ القرآن في المركز الإسلامي! أي أنه توصل بذكائه وذكاء زوجته إلى أن المصلحة العامة للأبناء تقتضي كثرة معاناة الأبوين . والغريب أنه كان يُسمعهما مثل هذه القرارات التي توصل إليها بفضل زوجته الصالحة - هكذا يصفها - برعاية ووصاية الشيخ الجليل والذي تتواصل معه الزوجة الصالحة استفتاءً واستنصاحاً.

الشاهد أن حياة الأبوين انقلبت جحيماً، وخاصَّةً الأم المسكينة التي تقضي معظم وقتها بالبكاء والدعاء والصلاة، والجلوس في غرف الأولاد، تقلب ملابسهم وأدواتهم وألعابهم التي تحتفظ بها، ثم تعيد أغراضهم وتخرج باكيةً، وهكذا في كل يوم، بل وربما أكثر من مرة في اليوم الواحد؛ حتى إن الناظر إليها يدرك حزنها ومعاناتها على الرغم من محاولتها إخفاء ذلك كله، وكم يزداد ألمها عند سؤال الناس لها عن أمرها وحالها، أي مع الابن وزوجته والأحفاد، الأمر الذي دفعني إلى ضرورة اللقاء مع الابن ومناصحته؛ رفقاً بالوالدين المنكوبين . وهذا لا يعني أنه يجب على كل ابن البقاء مع والديه وعدم الانتقال إلى مسكن آخر، وإنما يجب ذلك إذا رغب

به الوالدان أو كانا محتاجين لبقائه معهما.

ومما شجعني كذلك على الإقدام واللقاء والمناصحة؛ ما رأيت من شدة تعلُّق الأبوين بأحفادي الذين كانوا يترددون تباعاً، ويتناوبون مع الأولاد على زيارتنا، وكذلك تعلُّق الأحفاد والصغار من العائلة بهما حتى كنا نقضي الساعات الطوال سويَّاً، وكان الصغار ينادونهما بوصف الجد والجدة ، وكم سرهما ذلك حتى شعرنا وشعرا أيضاً بحاجة الإنسان بفطرته إلى مثل هذه الصلات والتواصل.

ثم طلبت منهما التدخل رجاء الإصلاح، وتركت له - أي الابن- حرية اختيار المكان ومن يريد له الحضور في الجلسة، ولكن عجبت كثيراً من خوفهما من ردة فعل ذاك الابن؛ لأنه وكما يعلمان لا يريد ولا يرغب من أبويه التحدث حول هذا الموضوع وخاصَّةً مع طرف آخر . ولكنني هوَّنت الأمر عليهما؛ فماذا عساه أن يفعل أكثر مما فعل؟ أي حرمان الأبوين من أولاده، مؤكداً لهما حرصي على التدخل للإصلاح، وإن رأيت غير ذلك فإني حريص جدّاً على عدم توسعة الشُّقة بينهما وبينه وأسرته، فكان الرفض- كما وضحت ذلك في المقدمة - فرأيت نفسي مضطرّاً للكتابة ومُذَكِّراً إياه عساه أن يرفق بهما، وكان جوابه أنه على تواصل مع شيخ جليل وأنه يعمل بوصاياه، الأمر الذي جزمت لأبويه أنه ليس ثَمَّ شيخ يقر حاله ووضعه، فضلاً عن أن يوصيه بما هو فيه، وأبديت استعدادي للسفر معه إلى الشيخ، أو أكون وإياه والشيخ على اتصال مباشر، وأن أعرض أنا ووالده أو والدته

الأمر على الشيخ، وشرحت للدكتور أن الأمر لا يتعدى الفتوى، ومعلوم أن جواب الفتوى يناسب حال عرضها وشرحها وملابساتها من قبل المستفتي، ثم يزيد الأمر تأويل المستفتي ليجعل من الفتوى ما يناسب حاله، ويبرر قناعاته.

الشاهد أني كتبت وأطلت وما كنت أظن أن الكتابة ستبلغ ما بلغت؛ ولكن والله الشجون التي أثارتها الأحوال وما رأيت، وإصراره وعناده ورجوعه في ذلك كله إلى الزوجة والاسترشاد بما فَهِمَتْه من نصائح الشيخ. ثم قرأتها على الأبوين مع الشرح والترجمة قدر الاستطاعة والاستعانة بمن حضر من أولادي وأهلي، فرأيت مدى سرورهما وتفاؤلهما، ثم عبَّرا عن عظيم شكرهما، وأنهما يُرضيهما أقل من هذا . ثم اقترح عليَّ الدكتور لو جعلت الرسالة وموضوعها ومضمونها على شكل محاضرة في المسجد والمركز لتعم الفائدة؛ لأنه كما بيَّن أن الأمر لا يخص عائلته وابنهما، بل يكاد يعم كثيراً من المسلمين في تلك البلاد وأوربا وفي غيرها.

وبعد إرسال الرسالة الطويلة إلى ذلك الابن، وانتظاره حتى أجاب بأنه قرأها مع زوجته، ليس كل الرسالة وإنما استعرضا أكثرها - كما ذكر- الشاهد أنها لم تغير شيئاً من موقفهما لأنه مبني على الأصلح للأولاد، وأن كثرة مخالطة الأولاد للجدَّيْن ستجعل حياة الأولاد تعتمد على العاطفة والاتكالية واللعب واللهو أكثر من الجد والاجتهاد.

وأخيراً، وكما أراد الدكتور تم عرض أصل الرسالة وموضوعها في

دروس مترجمة في المسجد ولأيام متواصلة وحضور كثيف، ونقل عبر الأجهزة ومتابعة من البيوت، وبحضور الوالدين المنكوبين أيضاً، مع إجادة في الترجمة وشرح وتفصيل، فظهر أثره سريعاً في كثير من الشباب والآباء والأمهات، وظهر ذلك جليّاً من خلال اللقاء المفتوح بعد عدة أيام من الشرح والتفصيل والترجمة، ومن خلال كثرة الأسئلة وذكر أخبار كثير منهم، فمنهم من قرر السفر إلى والديه بعد انقطاع زاد على عشر سنوات، ونحو ذلك من غرائب الأخبار والقطيعة والانشغال عن الوالدين بالأولاد الذين أشغلهم بريق حضارة الغرب والحياة المادية الغربية؛ الأمر الذي سُرَّ به وله الدكتور وزوجته، وشكره عامة أهل المسجد والمركز بعد إعلامي لهم بأن الدكتور هو سبب هذا الموضوع وهذه اللقاءات. وبدا السرور والفرحة والغبطة على محياه ومحياها، ولكن بقي الجرح غائراً دفيناً، علمه من علمه، وجهله من جهله . والله أسأل أن يصلح لهما الأحوال، ويهدي قلب ذلك الابن العاق، وكل من كان مثله؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

لَوْ كَانَ يَدْرِي الابْنُ أَيَّةَ غُصَّةٍ ... قَدْ جَرَّعَتْ أَبَوَيْهِ بَعْدَ فِرَاقِهِ
أُمٌّ تَهِيمُ بَوَجْدِهِ حَيْرَانَةً ... وَأَبٌ يَسِحُّ الدَّمْعَ مِنْ آمَاقِهِ
يَتَجَرَّعَانِ لِبَيْنِهِ غُصَصَ الرَّدَى ... وَيَبُوحُ مَا كَتَمَاهُ مِنْ أَشْوَاقِهِ
لَرَثَى لِأُمٍّ سُلَّ مِنْ أَحْشَائِهَا ... وَبَكَى لِشَيْخٍ هَامَ فِي آفَاقِهِ
وَلَبَدَّلَ الخُلُقَ الأَبِيَّ بِعَطْفِهِ ... وَجَزَاهُمَا بِالعَذْبِ مِنْ أَخْلَاقِهِ

كان ذلك قصة الرسالة والنصيحة والمحاضرات واللقاءات في

بريطانيا، ثم كانت العودة إلى الديار بعد نعمة الشفاء والبرء من المرض، ولكن بقيت ذكريات تلك القصة في نفسي عميقة الأثر لما خالطها من الأفراح فيما رأينا من النتائج على الأسر والعائلات والأفراد، وكذلك من عميق الأحزان ومرارتها في الدكتور وزوجته.

ثم شاء الله أن كلمني الدكتور في أوائل شهر صفر من عام ١٤٣٤هـ وهو في دبي لحضور مؤتمر طبي عالمي وزوجته ترافقه، فدعوته لزيارتنا، فوافق جزاه الله خيراً . وكانت الزيارة، وحلَّ ضيفاً كريماً علينا في منزلنا، ويسر الله لقاءه بالأهل جميعاً، وكان الأولاد والإخوان قد التقوا بهما في بريطانيا، وتوالت الزيارات العائلية . والحق أن الأبناء والإخوان قاموا ببرهما وأداء الواجب نحوهما؛ اعتناءً بهما، وبرّاً بي أيضاً، فعاشا أياماً ملؤها البهجة والسرور وتواصل الأرواح والقلوب قبل الأبدان ولله الحمد والمنة. ثم غادرا بعد عشرة أيام متواصلات الليل والنهار بقضاء أجمل الأوقات. وسرهما ما لقياه وما تذكراه من الأصل في العلاقات وجميل الوصال قبل انتقالهما إلى بريطانيا، أي تذكرا ما كان عليه الأمر والحال في أسرتيهما قبل الغربة والاغتراب.

الشاهد أنه رغب إليَّ وأشار عليَّ كتابة رسالة عامة في بر الوالدين وصلة الأرحام، مشيراً إلى أنه يرغب في ترجمتها وطباعتها على نفقته الخاصة، وتوزيعها على مسلمي تلك الديار؛ وذلك لما رأى من حسن الآثار في توزيع أشرطة تلك اللقاءات حول الموضوع وأصل قصته، فبادرته

بالموافقة لشدة الحاجة إلى ذلك من الناحية الشرعية أولاً، ومن الناحية الإنسانية والاجتماعية ثانياً . وإن إجابته وموافقته مغنم وحتم، وإن إشارته ورغبته أمر لطيف . وها هي تخرج بهذه الحلة بعد شيء يسير من الإضافات.

والله أسأل التوفيق والسداد، وأن تكون هذه الرسالة مفتاحاً للخير والتواصل والبر والإحسان بين الآباء والأبناء، مغلاقاً للشر والفساد والقطيعة والعقوق؛ إنه تعالى ولي ذلك والقادر عليه . وأسأله سبحانه أن يوفق الجميع لحسن الفهم والتدبر، وجميل التطبيق، وحسن الاتباع.

وكتبه:

فلاح بن إسماعيل مندكار

الكويت

ربيع الآخر ١٤٣٤هـ

الموافق: فبراير ٢٠١٣م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه. وبعد،

أخي في الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لقد سمعت عن طريق والديك الكريمين طرفاً مما جرى بينك وبينهما، ورأيت أثر ذلك عليهما، ولا أُخفيك فقد رأيت في عينيهما تأثراً عظيماً، وجرحاً غائراً في نفسيهما، حتى رأيت بعيني بكاءهما، وخاصةً الوالدة الكريمة؛ فقد كان بكاؤها يسبق كلامها، والتأثر يغلب عواطفها، والدموع تسبق صبرها وجلدها الذي طالما كانت تتظاهر به.

أخي الحبيب، كم تمنيت لقاءً يجمع بيننا، نتواصى ونتذاكر ونعتذر بما يعود علينا بالخير والصلاح، وعلى والديك بالفرح والسرور والغبطة والرضا، ولكنني علمت أخيراً رفضك للقاء والجلوس والحديث بحجة أنني أجنبي عن عائلتكم الكريمة، مع أنني كنت أرغب بأن أسمع وجهة نظرك لأجمع الرأي في الموضوع بالسماع من الطرفين، فكلكم والله عزيز وحبيب وينبغي أن يسمع منه.

أخي الحبيب، تلك هي رغبتك وإني لأحترمها، ولكن تلك أيضاً

كانت أمنيتي – أي اللقاء – فأقول: قدر الله وما شاء فعل، وأستميحك عذراً في الكتابة والمناصحة عبرها لمَّا تعذر اللقاء، فأرجو منك قبول كتابتي، ويعلم الله أني ما أردت إلا النصيحة والمذاكرة؛ فالدين النصيحة، والمؤمن مرآة أخيه، والصلاح والإصلاح غاية الجميع، فالحق ضالتنا جميعاً أنَّى وجدناه أخذناه.

أخي الحبيب، أمام ما ذكرت لك لم أجد سبيلاً غير الكتابة، و ههنا أكتب وبالله تعالى توفيقي، وعليه جل وعلا اتكالي، ورجائي السداد في القول، والصحة في العبارة، والإصابة في الاستدلال، والبيان بالتي هي أحسن، داعياً المولى تبارك وتعالى أن يكون حديثي معك حديث قلب إلى قلب، وسائلاً إياه جل في علاه أن تجد كلماتي على مسامعك قبولاً، وإلى قلبك طريقاً؛ فوالله ما أردت إلا خيراً ونصحاً، وهذا والله عذري، فإن أخطأت في استدلال، أو أسأت في عبارة، فالمعذرة المعذرة، وأنت أهل العذر والصفح.

وفقني الله وإياك، وسدد على درب الخير والرضا والصلاح خطاك، وبارك فيك وفي والديك الكريمين وفي ولدك وأهلك ومالك، ونفع الله بك، وجعلك أينما كنت مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، مُصلحاً ذات البين، نافعاً للغير، ناصحاً للخلق والعباد، مباركاً حيثما كنت، برّاً بوالديك خيِّراً، وسلاماً لأهلك وولدك، وجعلك وعقبك موحداً

متبعاً هادياً مهتدياً داعياً إلى الله ما حييت.

اللهم يا ولي الإسلام وأهله، ثبتنا عليه حتى نلقاك.

كتبه أخوكم ومحبكم:
فلاح بن إسماعيل مندكار
بريطانيا، برمنجهام
٢٨ ربيع الثانى ١٤٣٣هـ
الموافق: ٢١/ ٣ / ٢٠١٢م

الوالدان الكريمان

﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾

اعلم أخي وفقني الله وإياك لحسن الفهم والأداء أن دين الإسلام هو دين الحقوق والواجبات و أنه آكد الأديان وأوضح الشرائع في بيان الحقوق وكيفية وتفصيل أدائها وكذلك في بيان الأولويات في أصحاب الحقوق وتفصيلها، فالله تعالى بيَّن وفصَّل ورغَّب وحذَّر، ووعظ بذكر القصص وضرب الأمثلة حتى أقام الحجة وأظهر المحجة في ذلك كله.

فالوالدان الكريمان هما سبب وجود الإنسان في هذه الدنيا، فكل ما يكون منه من العلم والتعلم وبلوغ أعلى الدرجات وكثرة المكاسب والسعي في المال والرزق والولد إنما هو فرع عن ذلك - أي عن الوالدين الكريمين -؛ فهما سبب وجود كل ما يسر الله تعالى وأنعم به عليك.

والوالدان لهما على الإنسان غاية الإحسان والإنعام بعد الله تبارك وتعالى؛ فالوالد بالجد والإنفاق، والوالدة بالمشقة والولادة والإشفاق، وكل ذلك بعد نعمة الله بالخلق والإيجاد والتيسير والإنعام، ثم يلي ذلك

نعمة الوالدين بالإيلاء والتربية برّاً ورحمةً وإحساناً، هكذا ترتبط النعم أولويَّةً، ويثبت الإحسان والفضل لله تعالى ثم للوالدين بلا فصل.

يقول عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما[1]: ثلاث آيات نزلت مقرونةً بثلاث، لا تُقبل منها واحدة بغير قرينتها:

إحداها- ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[المائدة: ٩٢]، فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه.

الثانية- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[النور: ٥٦]، فمن صلى ولم يزكِّ لم يقبل منه.

الثالثة- ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[لقمان: ١٤]، فمن شكر الله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه.

فالسعيد من وفقَّه الله وجمع بين ما قرن الله، والشقي من فرَّق بين القرائن وأعمل جانباً واعتني به وأهمل الآخر وصد عنه.

وتدبر أخي في الله حسن اختيار حبر الأمة وترجمان القرآن، فللَّه دره، ورضي عنه وعن أبيه وكافة الصحابة.

تدبر في الآية الأولى فهي مفتاح الاعتقاد الواجب لله تعالى

(١) الزواجر للهيثمي (٢/ ٦٥١)، الكبار للذهبي (ص٣٩).

ولرسوله ﷺ، أي الطاعة المطلقة، فحق الطاعة لله تعالى ثم لرسوله المبلغ عنه.

ثم في الآية الثانية فهي مفتاح العبادات وامتثال الطاعات عبادةً واتباعاً وإحساناً وإخلاصاً لله تعالى وحده، ثم اتباعاً وإحساناً فيها لرسوله عليه الصلاة والسلام.

ثم في الآية الثالثة وهي مفتاح الأخلاق والمعاملات والسلوك في الأقوال والأحوال والأفعال.

وهذا هو الدين كله: العقائد، والعبادات، ثم الأخلاق والسلوك والمعاملات.

واعلم أخي - وفقني الله وإياك لهداه - أن التفريط عند أهل الاستقامة وطلاب العلم إنما يكثر في الباب الثالث، أي في باب المعاملات والسلوك والأخلاق وأداء حقوق الخلق والعباد، بل تعلمنا وسمعنا من مشايخنا رحمهم الله أن الباب الثالث هو الأكثر مشقةً والأصعب ضبطاً؛ لأنه تطبيقات وأخلاق ومعاملات تكون في كل ساعة ولحظة وحال، والخلل في جانب التطبيق أعظم منه في جانب العلم والاعتقاد.

إن بر الوالدين أصل من الأصول في دين الله عز وجل، بل هو آكد

الحقوق بعد حق الله تعالى، وقربة ووسيلة من أعظم القربات والوسائل في دين الله عز وجل، كيف وقد قرن الله جل وعلا حقهما بحقه بلا فصل ولا تفصيل؟

قال الله جل وعلا: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

فالحق والواجب الذي لهما يلي حق الله تعالى بالتوحيد والعبادة بلا فصل وكذلك بلا تفصيل، شأنه في ذلك شأن حق الله تعالى، أي في جميع الحالات، فكما أَنَّ الواجب أَنْ توحد الله وتعبده في جيمع حالاتك وأحوالك، فالغني والفقير والملك والمملوك والصحيح والمريض والكبير والصغير والذكر والأنثى كلهم مطالب بذلك، فلا يسقط حق الله تعالى في حال من الأحوال، فكذلك حق الوالدين فإنه على الإطلاق وفي جميع الأحوال، أي إن أحسنا إليك أو لم يكونا كذلك، إن كانا على الإسلام أو على الكفر، حيّان كانا أو ميتان، فحقهما وما يجب لهما واقع واجب أداؤه أينما كنت وكيفما كنت وحيثما كنت.

هذا من جانب البر والإحسان، وكذلك الأمر فيما يضاد ذلك أي عقوق الوالدين، فإنه كبيرة وشنيعة على الإطلاق وبلا قيد، ويقارن بأعظم الكبائر وهو الشرك بالله، أعاذنا الله وإياك .

فالأمر بالاقتران، فكما أن حقه سبحانه وعبادته مقرون ببرهما والإحسان إليهما، فكذلك عقوقهما والإساءة إليهما ومضايقتهما وجلب الأحزان لهما مقرون بالشرك بالله وعبادة غيره، عياذاً بالله.

فالحذر الحذر وإن قصَّر الوالدان في حقك أو حتى في حقوقك أن تتسلح وتتعذر بأنك إنما تعاملهم بالمثل، وإياك والخلط بين المقامات، فأين مقام الأبوة من مقام البنوَّة؟ شتان شتان، وأنَّى لمقام البنوَّة أن يتطاول على مقام الأبوة؟ بل أنَّى له أن يدنو ويقترب منه؟ شتان يا عبد الله بين المشرق والمغرب، وبين الثرى والثريّا.

فعليك أن تطيع الله فيهما، وإياك والتفريط فيما أوجب الله عليك شرعاً، وفيما قرنه بحقه جل وعلا وعذرك أنهما قد فرَّطا وأهملا شيئاً من حقك؛ فبئس والله العذر، وما هو بعذر، بل هو باب عظيم وسد منيع بينك وبين الشيطان قد فتحته، بل كسرته.

واعلم أن المعاملة بالمثل مع الأقران والإخوان والزملاء والجيران بل وعامة الناس ليس مما يسوغ شرعاً ولا عقلاً ولا فطرةً ولا سموّاً في

الفضائل والمكرمات، فضلاً عن أن يسوغ بين المرء وبين والديه الكريمين.

لقد حذرنا رسولنا عليه الصلاة والسلام من ذلك فقال: «**لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا**»(١).

فهذا خُلُق نُهينا عنه مع سائر الناس بغية بلوغ درجات الكمال والإحسان والإتقان في دين الله تبارك وتعالى، أي هذا واجبنا مع سائر الخلق والناس، فكيف يكون الحال مع الوالدين الكريمين؟!! وهذا إن أساءا وقصَّرا أوفرَّطا في شيء من حقوقك بزعمك وإحساسك وقناعتك بما أوحاه وَوَسْوَسَ الشيطان به إليك أو سوَّلت به إليك نفسك، فكيف إن لم يكونا كذلك؟!! وهذا والله هو الظن الواجب فيهما، وهو الأصل.

فأوصيك بعلو الهمة وعلو الدرجات في الدين والدنيا، وإياك والإمعة، وإياك والدون؛ فإن الرضا بالدون دون.

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٠٠٧)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٣٤٥)، وصحَّح وقفه على ابن مسعود، انظر: «المشكاة» (٥١٢٩). والحديث وإن ضعف إسناده فقد صحَّ عن ابن مسعود رضي الله عنه، والنصوص الكثيرة في الكتاب والسنة والأصول العامة تشهد لمعناه وتؤكده.

ثم اعلم أخي - وفقني الله وإياك - أن أحداً منّا لن يستطيع أن يُوفي أبويه حقهما بل شيئاً من حقهما، وخاصَّةً أمه، لذلك أين أنت والمعاملة بالمثل أو بالمثلية المزعومة؟

فمَن منّا مهما بلغ ومهما فعل وبذل يستطيع أن يُوفي والديه حقهما؟! ومَن منّا يستطيع أن يكون الركوب المذلل لهما؟ والله لو أفنينا الأعمار في خدمتهما، وبذلنا الأموال في نيل رضاهما، ما كنّا لنوفيهما حقهما أبداً وخاصّةً حق الأم.

واعلم أن الإسلام قد أعطى كل شيء حقه، فكما أن لربك عليك حقّاً، ولنفسك عليك حقّاً، ولأهلك عليك حقّاً، ولولدك عليك حقّاً، فإن لوالديك عليك حقّاً، وواجب أن تعطي كل ذي حق حقه، فاجتهد في أداء الحقوق بعد العلم بأن آكدها هو حق الوالدين الكريمين بعد حق الله تعالى.

إن هذه القاعدة الشيطانية الكافرة - أعني النظر إلى الوالدين والتعامل معهما بالمثلية المزعومة، أو قل: ردود الأفعال على ما كان منهما، ولو بالظن وسوء الفهم - أقول: هذه القاعدة مما تسرب إلينا أو إلى كثير منا، واخترق صفوفنا عبر تلك الأبواب المكسورة والمفتوحة بيننا وبين العالم الغربي والمجتمعات الكافرة التي يتطلع إليها كثير منا

بعين الإعجاب والرقي والحضارة والتقدم . وإنهم وإن اخترقوا الفضاء بزعمهم، وبلغوا في العلوم التجريبية والمكتشفات العصرية غايةً عظيمةً ومنزلةً رفيعةً، وحققوا ما كانوا يصبون إليه، فإنهم في غفلة وعماية تامة - إلا من رحم الله - عما يدور حولهم ويعايشونه كل أيامهم من حقوق الخلق والعباد، بل من الوفاء والإحسان بدءاً بالوالدين وإن بلغ بهما الكبر مبلغاً عظيماً، وبلغت بهما الحاجة إلى الإعانة والمساعدة غايتها حتى في أبسط حاجاتهما وضرورياتهما.

فاعلم أخي، واعلم أيها المغرور ببريق ظاهر مجتمعاتهم أنهم لم يستدلوا بعد، ولم يرتقوا إلى إدراك هذه الحاجات الأساسية فضلاً عن أدائها، فضلاً عن إشباعها، مع أنهم سيمرون عليها ويشعرون بها وبالحاجة إليها، أعني الحاجة إلى إشباع مثل هذه العلاقات والغرائز في الأبوة والبنوة وصلة الأرحام ونحوها، ولكن متى ذلك؟ إنه بعد فوات الفوت وبلوغ السيوف العذل.

وأي خير وسعادة وطمأنينة في بريق هذه المكتشفات والتقدم التكنولوجي إن كانت تعمي أهلها عن الوالدين والأرحام والغرائز والعواطف والعلاقات وما تتضمنه من الحقوق وأداء الواجبات وهي من أعظم الضرورات وأسباب السعادة التي نعيشها كل لحظة وحين؟

ولقد أدرك بعضهم ذلك واستشعر النقص والحاجة إلى ذلك الأمر الغريزي الفطري، وهو إحياء وتنمية هذه الروابط والوشائج، لذلك تسارعوا إلى تكفير ذنوبهم وإشباع رغباتهم بما أوحى به إليهم الشيطان وسولت لهم به النفس اعتذاراً وتكفيراً بزعمهم . فاخترعوا واتفقوا على تخصيص يوم محدد يبذلون فيه شيئاً من الرفق والرقة والبر والإحسان، وينفقون فيه شيئاً من الأموال والهدايا، ويقضون فيه شيئاً من الوقت مع الوالدين أو مع الأم على أنه إحياء لذكراها أو ذكراهما، وتذكر فضلها وإنعامها، وكسب برهما بهدية محدودة زاعمين أنه الوفاء والإحسان!! وبئس والله ما اخترعوه وما بذلوه وما رضيت به أنفسهم ظانين أنهم بذلوا وأدوا ما قد وجب عليهم، وهيهات هيهات؛ فإن البر يجب أن يكون بعدد أيام حياتك، بل - يا أيها المغرور - بعدد أنفاسك، وإنه والله هو المقدم على كل شيء في حياتك، وهو الأولى باهتمامك بعد حق الله تعالى؛ وذلك استجابةً لنداء الرب الكريم في الوالدين الكريمين، ثم استجابةً لنداء الفطرة والعقل القاضيين بالإحسان والبر والإنعام، بل والله إنه الاستجابة لعجلة الحياة ودوران العلاقات وتفرع البنوة عن الأبوة، وهو حقيقة الاستخلاف والخلافة في هذه الدنيا، فكما أن الأبوين الكريمين تاج على رأسك لا يمكنك أن تجاريه أو تقاربه أو حتى تماثله؛ فأنى للعين أن تعلو على الحاجب،

فكذلك ستدور الأيام وتكون أيها الابن تاجاً على رأس ولدك، وستشعر بذات الشعور وتحس بذلك الإحساس وتحتاج إلى مثل تلك العلاقة؛ فإنها غرائز في بواطننا ستظهر يوماً ونحس بأهميتها، ونستشعر فضل ربنا في دولاب الاستخلاف في الروابط والوشائج والغرائز.

وتدبر أخي الكريم، وأمعن النظر، وأيقظ القلب، وألق السمع، وكن شهيداً لواعظ الله وحسن وصيته؛ فإنه لا واعظ لمن لم يكن له في كلام الله عظة وبلغة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

بر الوالدين في القرآن الكريم

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماء: فأحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزام البر والطاعة له والإذعان من قَرَن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته وشكره بشكره وهما الوالدان»(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أوصى بالإحسان إلى الوالدين؛ فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيراً ما يقرنُ الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين»(٢).

وقال جل وعلا: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَمَرْنا الإنسان ووصيناه بوالديه حسناً، أي ببرهما والإحسان إليهما بالقول والعمل، وأن يحافظ

(١) تفسير القرطبي (٥/ ١٨٢-١٨٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٨).

على ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله... فبرّوا والديكم وقدموا طاعتهما إلا على طاعة الله ورسوله؛ فإنها مقدمة على كل شيء»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٣ - ١٥].

«واذكر - أيها الرسول - نصيحة لقمان لابنه حين قال له واعظاً: يا بنيَّ، لا تشرك بالله فتظلم نفسك؛ إن الشرك لأعظم الكبائر وأبشعها.

وأَمَرْنا الإنسان ببرِّ والديه والإحسان إليهما، حَمَلَتْه أمه ضعفاً على ضعف، وحمله وفِطامه عن الرضاعة في مدة عامين، وقلنا له: اشكر لله، ثم اشكر لوالديك، إليَّ المرجع فأُجازي كُلّاً بما يستحق.

وإن جاهدك- أيها الولد المؤمن - والداك على أن تشرك بي غيري في عبادتك إياي مما ليس لك به عِلم، أو أمراك بمعصية مِن معاصي الله

(١) تفسير السعدي (ص٦٢٧).

فلا تطعهما؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[1]، وصاحبهما في الدنيا بالمعروف فيما لا إثم فيه، واسلك - أيها الابن المؤمن - طريق مَن تاب من ذنبه، ورجع إليَّ وآمن برسولي محمدﷺ، ثم إليَّ مرجعكم فأخبركم بما كنتم تعملونه في الدنيا وأجازي كلَّ عامل بعمله»[2].

وقال عز من قائل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٣- ٢٤].

«وأَمَر ربك - أيها الإنسان - وأَلْزَم وأوجب أن يُفرَد سبحانه وتعالى وحده بالعبادة، وأمر بالإحسان إلى الأب والأم، وبخاصة حالة الشيخوخة، فلا تضجر ولا تستثقل شيئاً تراه من أحدهما أو منهما، ولا تُسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ، ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، ولكن ارفق بهما، وقل لهما- دائماً - قولاً ليناً لطيفاً . وكُنْ لأمك وأبيك ذليلاً متواضعاً رحمةً بهما، واطلب من ربك أن يرحمهما برحمته الواسعة أحياءً وأمواتاً، كما صبرا

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ١٧٠) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٢٠)، وانظر: «الصحيحة» (١٧٩)، وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٢٤٥٥) من حديث النواس رضي الله عنه، وصححه الألباني في «المشكاة» (٣٦٩٦). وأصله في الصحيحين من حديث عليٍّ رضي الله عنه.

(٢) التفسير الميسر (ص٤١٢).

على تربيتك طفلاً ضعيف الحول والقوة»[1].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ١٥-١٦].

«ووصينا الإنسان أن يحسن في صحبته لوالديه برّاً بهما في حياتهما وبعد مماتهما؛ فقد حملته أمه جنيناً في بطنها على مشقة وتعب، وولدته على مشقة وتعب أيضاً، ومدة حمله وفطامه ثلاثون شهراً. وفي ذكر هذه المشاق التي تتحملها الأم دون الأب دليل على أن حقها على ولدها أعظم من حق الأب، حتى إذا بلغ هذا الإنسان نهاية قوته البدنية والعقلية وبلغ أربعين سنة دعا ربه قائلاً: ربي ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمتها عليَّ وعلى والديَّ، واجعلني أعمل صالحاً ترضاه، وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك من ذنوبي، وإني من الخاضعين لك بالطاعة والمستسلمين لأمرك ونهيك، المنقادين لحكمك.

أولئك الذين نتقبل منهم أحسن ما عملوا من صالحات الأعمال،

(١) التفسير الميسر (ص٨٤).

ونصفح عن سيئاتهم في جملة أصحاب الجنة، هذا الوعد الذي وعدناهم به هو وعد الصدق الحق الذي لا شك فيه»[1].

(١) التفسير الميسر (ص٥٠٤).

بر الوالدين في أخلاق الأنبياء

نـــــــوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾ [نوح: ٢٨].

إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم: ٤٠ - ٤١].

إسماعيل عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

يوســـف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوســـف: ٩٩ - ١٠٠].

سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

يحيـــى عليه السلام: ﴿وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤﴾ [مريم: ١٣ - ١٤].

عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٢].

هذا هدى ونور وبرهان من الله تعالى في بر الوالدين وما يجب لهما في حياتهما وبعد مماتهما، هذا ما يحبه الله تبارك وتعالى، وهذه أخلاق أهل محبته وصفوته من خلقه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وعلى آثارهم اقتفِ، وبسننهم استن؛ فما الهدى والله إلا في اتباع من اهتدى ورشد، وما الغي إلا في اتباع من غوى، عافانا الله من الغي والضلال، وهدانا بتوفيقه إلى الهدى والرشاد وسبيل أهل الإيمان والتقى؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

بر الوالدين في السنة

روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أُمُّكَ**». قال: ثم من؟ قال: «**ثُمَّ أُمُّكَ**» . قال: ثم من؟ قال: «**ثُمَّ أُمُّكَ**». قال: ثم من؟ قال: «**ثُمَّ أَبُوكَ**»(١). وفي رواية قال: «**أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ**»(٢). وفي رواية: «**أُمَّكَ، ثُمَّ أُمَّكَ، ثُمَّ أُمَّكَ، ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ الأَقْرَبَ فَالأَقْرَبَ**»(٣).

وروى ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**» . قلت: ثم أي؟ قال: «**ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ**». قلت: ثم أي؟ قال: «**ثُمَّ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة؟ رقم (٥٦٢٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم (٢٥٤٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣)، وأبو داود في سننه (٥١٣٩)، والترمذي في سننه (١٨٩٧) من حديث معاوية بن حيدة رضي الله تعالى عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٩٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٠٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

وروى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أَحَيٌّ وَالِدَاكَ**»؟ قال: نعم . قال: «**فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**»(١).

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الوَالِدِ**»(٢).

وعن معاوية بن جاهمة عن أبيه قال: أتيت رسول ﷺ أستشيره في الجهاد، فقال النبي ﷺ: «**أَلَكَ وَالِدَانِ**»؟ قلت: نعم. قال: «**الْزَمْهُمَا فَإِنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ أَرْجُلِهِمَا**»(٣).

وثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(٤).

وهذا والله كذلك هدى ونور ووحي من الله وبرهان وبيان وتفصيل لما جاء في كتابه جل وعلا في بر الوالدين.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: الجهاد بإذن الأبوين، رقم (٢٨٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم (٢٥٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (١٨٩٩)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٥١٦).

(٣) أخرجه الطبراني في«الكبير» (٢٢٠٢)، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (٢/ ٣٢٧): «حسن صحيح» .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

فالسعيد من وفقه الله واتعظ بوحي الله، والشقي من قدم رأياً أو قولاً على ما جاء في وحي الله، وتعذر بالمعاذير، فالحجة قائمة، والمحجة قاطعة، والبرهان واضح أتانا به رسول الهدى والرحمة، بيضاء نقية ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها إلا هالك متبع هواه، مطيع للشيطان، مغرور بوعده وتزيينه.

فأحق الناس بالإحسان في الصحبة والمصاحبة هي الأم - ثلاثاً - ثم الأب، ثم الأدنى والأقرب . فكيف برجال يقدمون حسن صحبة الزوجة والولد على الوالدين الكريمين، ثم يوجدون لأنفسهم المعاذير في ذلك؟!

فالله الله يا عبد الله في والديك، وإياك أن تقدم مالاً أو ولداً أو زوجةً على والديك في البر والإحسان والصحبة والعشرة؛ فإن ذلك مما حذر منه نبينا وأخبر أنه من علامات الساعة وأشراطها المذمومة، أي من علامات الساعة أن يبر الرجل زوجته ويعق أمه، ويطيع ويحسن إلى صديقه ويعق أباه.

وصدق الشاعر حيث قال:

فَأَيُّ امْرِئٍ سَاوَى بِأُمٍّ حَلِيلَةً فَلَا عَاشَ إِلَّا فِي شَقا وَهَوَانِ

وجاء كذلك في النصوص أن أحب الأعمال والطاعات والقربات

إلى الله تعالى بعد الصلاة على وقتها هو بر الوالدين . وتدبر أولوية ذلك حتى على الجهاد في سبيل الله الذي هو ذروة سنام الإسلام ومقتضى الإيمان.

ثم تدبر وصية الرسول ﷺ لبعض الصحابة في ذلك منعاً للتأويل وصرف الأولوية إلى غير الحقيقة مما يميل إليه كثير من الناس، وما هو إلا تحريف للكلم عن مواضعه، فإياك ثم إياك؛ فَبِرُّهُما وخدمتهما والإحسان إليهما، وبذل المعروف فيهما، والحرص الدائم على رضاهما - حاشا في الكفر والشرك والمعاصي - هو الأولى بالتقديم على الأعمال كلها بعد أداء الصلاة على وقتها وأداء حق الله تعالى . فالزم ذلك وفَّقك الله، والزم رجليهما، وتذلل تحت أقدامهما؛ فثم الجنة وثواب الله وما تصبو إليه من الخير والهدى والرشاد . ثم الزم الدعاء لهما في حياتهما، وزد منه وأَكْثِر بعد مماتهما؛ حرصاً على استمرار عملهما وأجرهما، وحرصاً على نفسك أيضاً أن تكون في عداد الصالحين؛ فإنها والله من أخص أوصافهم وأخلاقهم في أداء الحقوق لأهلها عامّةً، وللوالدين الكريمين خاصّةً.

أخي في الله، لقد شرع الله عز وجل بر الوالدين وأوجبه على جميع أهل الإسلام في كل وقت وحين وحال، وعظَّم سبحانه في النصوص تحذيراً ونهياً، وترغيباً وأمراً كلَّ ما مِنْ شأنه تعظيم الوالدين والإحسان

إليهما بجميع وجوه الإحسان، وكمال صلتهما، ودوام خدمتهما. واعلم أنه سبحانه لم يجعل لذلك حدّاً يراه الأبناء في برهم وعملهم، ولم يجعل لذلك حدّاً في الأعراف ولا في الشرائع، بل ترك ذلك الأمر - أعني بلوغ المنتهى في البر والإحسان - إلى حال الوالدين الكريمين، أي أن تبلغ فيما تفعل وتبذل رضاهما، وتُشبع رغبتهما، وتُطمئن نفسيهما، وتُفرح قلبيهما، وتُسعد أيامهما بذلك البر وتلك الخدمة وذلك الإحسان.

ثم اعلم - وفقني الله وإياك لبلوغ هذا الحد - أن ذلك أيسر وأقل في الكلفة والمشقة، وأدنى في البذل والعمل من جَعْل ذلك الحد والمنتهى يُرجع فيه إلى عرف أو شرع أو غيره . وإياك أن يوسوس لك الشيطان أو تزين لك نفسك بأن بلوغ رضاهما مما يشق ويصعب أو يستحيل أو نحو ذلك لما قد اشتهر أن رضا الناس غاية لا تدرك؛ فقد يكون القول صحيحاً اللهم إلا في الوالدين؛ فإنك يا عبد الله تستطيع الوصول إلى أعلى مراتب الرضا عندهما بأقل الأسباب وأبسط الأعمال، بل بأدنى الكلمات المستعذبات والبشاشة وحسن الاستقبال والاستئذان مع كثرة الدخول عليهما والسؤال والاستفسار عن أحوالهما وحاجاتهما.

وإن هذا الأمر مشاهد معلوم؛ فرضاهما في غاية القرب والإمكان،

على العكس من جميع الناس بل حتى الزوجة والولد. وإياك والاغترار والتعامي عن الحقائق؛ فإن الزوجات يكفرن العشير وما أكثر ذلك، والأولاد لا يزالون يريدون المزيد، بل تقرر في النصوص أن منهم- أعني الزوجات والأولاد - من هو عدو لمن يبذل لهم ما في وسعه لرفعتهم ونيل رضاهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٤ - ١٥]، والعداوة لا تقتصر على الدنيا، بل تتعداها إلى الآخرة، فالحذر الحذر وفقني الله وإياكم.

أقول: شرع الله تبارك وتعالى برهما في نصوص متنوعة بين الترغيب والترهيب، وحذر سبحانه من العقوق والقطيعة لهما، وخص جل وعلا الأم بمزيد عناية وبر لأن عنايتها بالولد أكبر وأعظم، وما يناله من المشقة في حمله ووضعه ورضاعه وتربيته أكثر مما يكون من الأب، كما وصفه ربنا جل وعلا بوصف بليغ مؤثر فقال سبحانه: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال عز وجل: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤ - ١٥]، فما أعظم تحملها للمشاق، وما أبلغ ما بيَّنه الرب تبارك وتعالى، فتدبر الوهن، ثم تدبر كيف إذا جاء الوهن على مثله، فيا لله كم

يتعاظم وكم يغور في الأعماق آثاره، وكم يبقى أثره في الحياة حتى والله لتتصاغر أمامها جميع مشاق الحياة الدنيا وغيرها من الآلام، وتبقى آثار ومشاعر الحمل والولادة ليهوِّن على الوالدات ما يجدونه من الصعوبات والآلام في الحياة، وما أكثرها.

يقول عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من بر الوالدة»[1].

فهل تريد يا عبد الله أكثر وأوضح من هذا ترغيباً في رد الجميل لأهله وخاصّةً للأبوين وللأم على وجه الخصوص؟!

العَيْشُ مَاضٍ فَأَكْرِمْ وَالِدَيْكَ بِهِ ... وَالأُمُّ أَوْلى بِإِكْرامٍ وَإِحْسَانِ
وَحَسْبُهَا الحَمْلُ وَالإِرْضاعُ تُدْمِنُهُ ... أَمْرانِ بالفَضْلِ نَالاَ كُلَّ إِنْسَانِ

وأقول أيضاً: تدبر ما جاء عن الله جل وعلا تحذيراً وتخويفاً، واجْمَع بين الأمر والنهي، وبين الترغيب والترهيب؛ لعل القلوب تجد مفاتحها، ولعل الأسماع تحسن مسامعها.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢ - ٢٣].

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٤).

ويقول الرسول الكريم ﷺ محذراً: «**بَابَانِ مُعَجَّلَانِ عُقُوبَتُهُمَا فِي الدُّنْيَا: البَغْيُ، وَالعُقُوقُ**»(١).

ويقول بأبي هو وأمي ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالمَرْأَةُ المُتَرَجِّلَةُ، وَالدَّيُّوثُ . وَثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالمُدْمِنُ عَلَى الخَمْرِ، وَالمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى**»(٢).

ويقول أيضاً عليه الصلاة والسلام: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ**»؟- ثلاثاً- قالوا: بلى يا رسول الله . قال: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**». وجلس وكان متكئاً فقال: «**أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**». قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته يسكت(٣).

فاحذر أخي في الله - وفقني الله وإياك لرشده وهداه وتقاه - إن آلت إليك الولاية، أي بلغت سن الرشد والرجولة وتمامها عند الأربعين عاماً، وخاصّةً عند كبر والديك وشدة حاجتهما إليك مع

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١١٢٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٣٤)، والنسائي في سننه (٢٥٦٢) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وقال الألباني في صحيح سنن النسائي: «حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور، رقم (٢٥١١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٨٧) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

ضعفهما وقلة حيلتهما، ولا تظنن أن لِاحْتياجهما إليك غايةً وحدّاً ومنتهىً، فوالله لا يزالان يحتاجان إلى جميل الرعاية والعناية وحسن العشرة وجميل الكلمة والتبسم منك في كل وقت وحين، وإن كانا يملكان مثل مال قارون، أو كانا في عافية وصحة وكمال في الأبدان وتيسير سبل العيش والحياة؛ واعلم أن المشاعر والوجدان والغرائز أعظم وأعمق من ذلك كله، فالشاهد إياك إن آلت إليك الولاية والقرار لما بلغت من الرجولة مبلغاً عظيماً، ومن المكانة في المجتمع مرتقىً مرموقاً، وكنت صاحب قرار وبيت وزوجة وولد وفعل وترك وحل وربط - كل ذلك منك في حين كبر والديك ونظرهما إليك وانتظارهما إحسانك - أن تفسد في الأرض، واعلم أنه ليس أعظم فساد في الأرض بعد الإشراك بالله من قطيعة الأرحام.

واعلم أيضاً أنه ليس أعظم قطيعة للرحم من الإساءة إلى الوالدين الكريمين أوعدم كسب ونيل رضاهما، وإدخال الأنس والسعادة والسرور إلى قلبيهما برؤيتك متبسماً بشوشاً، وبسماع أرق كلمات البر والإحسان والصلة والتواصل، فضلاً عن عقوقهما والإساءة إليهما، وإسماعهما أقبح الأوصاف والكلمات، ولقائهما بوجه عبوس، فضلاً عن التسبب ببكائهما وإسالة مدامعهما؛ فما أعظمها عند الله، وما أقبحها من الولد لوالديه.

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما **قال**: «بكاء الوالدين من العقوق والكبائر»[(١)].

وعن عروة بن الزبير قال: «ما بر والديه مَنْ أحَدَّ النظر إليهما»[(٢)].

ورأى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه **رجلاً يمشي خلف رجل فقال**: «من هذا»؟ قال: أبي . قال: «لا تَدْعُهُ باسمه، ولا تجلس قبله، ولا تمشِ أمامه»[(٣)].

واعلم وتدبر ما ذكره الرب تبارك وتعالى انتصاراً لحقهما وانتقاماً لعظيم حقهما ممن أساء إليهما؛ فإنه جل وعلا لعنهم، وما أشد اللعن على العاقل والمتعظ . وتدبر ما ذكره الله من أسباب اللعن فإن فيها العظة والعبرة؛ فاللعن أمره عظيم وخطير؛ والسبب هنا أنه تعامل مع النصوص التي أمرت ببرهما والإحسان إليهما معاملة الأصم والأعمى؛ فلم يُصْغِ لها أذناً، ولم يفتح لها بصراً ولا قلباً، لذلك كان نصيبه العمى والعماية التامة في بصيرته، فقابل كل هذه النصوص الواضحات الجليّات في تعظيم حقهما بالإساءة إليهما وعقوقهما.

وتدبر قول رسول الله ﷺ وكيف شحذ الهمم واستجلب العناية بقوله: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ**»؟ ووالله لم يجد الزمان أعظم عنايةً وإصغاءً وتدبراً

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣١)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد».
(٢) أخرجه ابن الجوزي «البر والصلة» (١٤٣).
(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٤٧٩).

وامتثالاً منهم أبداً، أي من الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ. ثم بيَّن أن أكبر الكبائر بعد الإشراك بالله وإضاعة حقه سبحانه عقوق الوالدين.

وتدبر الزيادة في شحذ الهمم واستجلاب العناية بجلوسه عليه الصلاة والسلام من حال الاتكاء، ثم تكراره لقول: «**أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**»، واعلم أنه ليس أعظم زوراً وبطلان شهادة من أن يصف الرجل حقوق والديه بكلمات تقلل من برهما وعظيم حقهما أو تهون ما كان منهما، كمن يزعم أن والديه أساءا إليه أو أخطأا في حقه أو لا يحترمان وجهة نظره، أو لا يتفقان مع زوجته أو لا يحبانها، أو لا يتفقان مع وجهة نظر زوجته وأهلها ونحو ذلك، أو لا يدركان مقتضى الحياة والمدنية!! ولقد سمعت من أحدهم ممن يدعي الحضارة والعلم وفهم معاني الحياة العصرية أن حق والديه عليه لا يتعدى حياة بيولوجية أو عملية بيولوجية قاما بها إشباعاً لرغبتهما ونزوتهما، ثم كنت أنا النتاج، فأي فضل تتحدثون عنه؟!! انتهى كلامه، وكبرت والله كلمةً تخرج من أفواههم، وعافاني الله وإياكم، ورزقنا حسن الفهم وصحة التطبيق.

فإياك إياك واستجلاب أسباب لعنة الله على نفسك، ثم إياك وقول الزور وشهادة الزور في حق والديك الكريمين؛ فإنها والله أعظم من قول الزور في حق غيرهما؛ فإن الزور قولاً وشهادةً هي ما كانت سبباً في إضاعة حق أو إحقاق باطل.

ثم إياك وأكبر الكبائر بعد الإشراك بالله، احذر أخي في الله من ذلك كله وضع نصب عينيك ما ثبت من أن الوالدين أحق الخلق بحسن الصحبة والبذل والخضوع، فلا ولد ولا صاحبة ولا صديق يُقدَّم عليهما ولا حتى يقاربهما في ذلك الحق أبداً . ثم ضع نصب عينيك ما جاء من التحذير العظيم والتخويف الذي والله تتزلزل له الجبال وتشفق منه في قول رسول الهدى والرحمة: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ**»[1]، أي قاطع رحم، هذا في عموم الرحم وأشده وأوثقه وآكده ما كان للوالدين الكريمين، بل لقد اشتقت الكلمة لعموم الأرحام من رحم الأم، وتَذَكَّر أن الرحم تلوذ بالعرش وتلجأ إلى الرب في علاه ممن قطعها، تدبر ذلك كله مقدِّماً ما للأبوين الكريمين من هذا الوصف وعظيم الحق الذي أبى الله إلا أن يقرنه بحقه في نصوص من القرآن والسنة.

فإياك ومواطن السوء، وإياك وموارد العطب والهلاك، وإياك وعدم الحذر من تحذير الله أوعدم الخوف مما يخوف الله به عباده، وإياك وعدم الوقوف عند نصوص الوعد ونصوص الوعيد، وإياك والتأويل وتقديم المعاذير؛ فإنها من سنن الله في خلقه وعباده إلا من رحم الله،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: إثم القاطع، رقم (٥٦٣٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٦).

وقليل ما هم كما قال ربنا جل وعلا: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ١٤ - ١٥]، وذلك لوضوح الأدلة وبيان الحجة فيما أوجب الله و فيما أمر ونهى ورغَّب وحذَّر سبحانه.

فاجتهد على مقتضى النصوص، وجاهد نفسك في إكرام الوالدين واحترامهما والإحسان إليهما وبرهما، وتبرأ من ضد ذلك، أي من عقوقهما وقطيعتهما والإساءة إليهما والتسبب في أدنى مضايقة لهما أو جريان مدامعهما؛ فإنه والله من أقبح الصفات في العبد وخاصّةً في أهل الاستقامة، وقد قضت النصوص أنها من أعظم الكبائر التي توجب غضب الجبار وسخطه، ومن ثم توجب لعنه والطرد من رحمته جل وعلا، أي توجب النار وتمنع من دخول الجنة.

ثم اعلم - وفقني الله وإياك للعلم النافع والعمل الصالح - أن الأبوين الكريمين بابك إلى الجنة، بل أسهل طريق وأوسع باب لدخولك جنة الخلد . تدبر ذلك وقم بالعناية بالطريق والباب؛ فإنه مفتوح على مصراعيه، وإياك والقيام بما يكون سبباً لإغلاقه أو التعسيروالوعورة في الطريق إليه؛ فما أيسره من طريق، وأوسعه من صراط، وأَفْتحه من باب، قليل والله كلفته، وعظيم والله عاقبته وثمرته.

وأرعِ سمعك وأحسن التدبر فيما ثبت عن رسولنا عليه الصلاة والسلام حين صعد المنبر يوماً والصحابة رضي الله تعالى عنهم جلوس كأن على رؤوسهم الطير، فسمعوه وهو يصعد يقول: «**آمِينَ**»[1]، ثم سكت برهةً وأعادها، ثم سكت أيضاً وأعادها، وسمعوا تأمينه ثلاثاً ولم يسمعوا دعاءً ولا استغاثةً ولا غيرها، فما أعظم تعجبهم، وما أعظم أساليب نبي الهدى والرحمة في استجلاب عناية صحبه وشحذ هممهم للإحسان والإتقان في الإصغاء والاستماع، وتهيئة قلوبهم للفهم وحسن التطبيق والامتثال . ثم أخبرهم بما يزيل تعجبهم؛ إذ كيف يكون التأمين وعلى ماذا كان وهم لم يسمعوا دعاءً؟! فقال عليه الصلاة والسلام: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ فقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللهُ . قُلْتُ: آمِينَ**»، من لم يكن رمضان سبباً لدخوله الجنة بعد معرفته وعلمه بأن رمضان شهر المغفرة والعفو والعتق من النيران، فدعا جبريل أن يبعده الله لأنه أعرض عن وعد الله ولم يرفع بما ثبت وجاء عن الله رأساً ولم يُلْقِ له بالاً، ولم يكترث ولم يستجب لداعي الله، ولم يجتهد لجميل وعد الله لعباده في رمضان، فاستحق لذلك الدعاء العظيم والتأمين العظيم الذي تُفتح له أبواب السماء وتخفق له الإجابة

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ١٤٠) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله تعالى عنه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٩٦).

والقبول، كيف لا والداعي جبريل ورافع الصوت بالتأمين محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟! أكرم بهما والله من داعٍ ومُؤَمِّنٍ، ومن أحق منهما بالإجابة من الله تبارك وتعالى؟

وأما التأمين الثاني - وهو الشاهد في موضوعنا - فقد كان على دعاء جبريل حين قال: «**مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ**»، فتدبر الدعاء مع الحذر أن تكون من أهله . وتدبر كذلك التأمين عليه مع الخوف والوجل من أن يشملك و تدخل فيمن يستحقه؛ فإن الدعاء كذلك أن يُبعد اللهُ عن رحمته ومغفرته ويُرغم أنف كل من أدرك والديه أو أحدهما ولم يدخل الجنة؛ لأنه لم يسعَ ولم يجتهد في أن يكونا سبباً في دخوله الجنة بعد رضا الله تبارك وتعالى المقرون برضاهما عنه بما يعاملهما به من الإحسان والبر . فما أعظم الدعاء وما أعظم التأمين، وما أحراهما بالقبول وسرعة الإجابة من رب كريم لا يرد دعاءً بل ويستحي سبحانه ممن يرفع يديه بالدعاء أن يردهما صفراً، وهذا لعامة أهل الإيمان والإسلام إن دعوه بشرطه، فكيف بدعاء كريم من جبريل عليه الصلاة والسلام وبتأمين وتأكيد عليه من رسول كريم عليه الصلاة والسلام، وما أبعده وأرغم أنفه من لم يقف وقفة صدق وخوف على نفسه من هذا الدعاء وذاك التأمين.

فرمضان باب للعبد إلى الجنة، والأبوان كذلك بابان عظيمان ليس

في بلوغهما ولا دخول الجنة من خلالهما عظيم كلفة ولا مشقة؛ فاليسير من العمل والبذل في رمضان أو للأبوين يقابله العظيم من الأجر والثواب والرحمة والمغفرة من الله تعالى.

واعلم أن عطاء الأبوين للولد يفوق بمراتب ما ينتظرانه منه من الإحسان؛ فالقليل من البر يرضيهما، واليسير من الإحسان يقنعهما. فتدبر ذلك واعمل بمقتضاه.

وإياك وعدم الاكتراث والمسارعة لإجابة نداء الله تعالى ورسوله ﷺ، وإياك وعدم التفاعل مع جميل وعد الله تبارك وتعالى، وعليك بالحرص على ما هو مقتضى الإيمان والاستقامة ولزوم ذلك في الحياة، في كل شأن وأمر وحال، وألَّا يحول بينك وبين ذلك المقتضى لا مال ولا صاحبة ولا ولد، خاصّةً بعد إعلام الله لك أن منهم من هو عدو للمرء، وأَمْرِه سبحانه بالحذر منهم.

وأما التأمين الثالث فقد كان على الدعاء على من سمع أو ذُكر عنده وفي مجلسه نبي الله ﷺ ثم لم يصلِّ عليه، أي لم يكلف نفسه بمقتضى محبته وتعظيمه وتوقيره بالصلاة والسلام عليه بأبي هو وأمي ونفسي.

فتدبر أخي في الله هذا الحديث العظيم.

ومما أذكره من كلام مشايخنا وعلمائنا رحمهم الله أن الحديث فيه ذكر

أبواب وأسباب استجلاب رحمة الله عز وجل والدخول في رضوانه ونعيمه، وأنه - أي الحديث - يتدرج فيه الأمر من الأعلى والأكثر إلى الأدنى والأقل في العمل والبذل والكلفة والمشقة . فرمضان يتطلب أعمالاً وأحوالاً، وإرضاء الوالدين يتطلب أقل من ذلك كثيراً، وأما الصلاة على الرسول الكريم فما أيسره، بل وما أجمل والله أن يُداوَم عليه ويُتغنى به وتلهج به ألسنتنا، وتتشنف به آذاننا؛ فليس والله في الوجود بعد قراءة القرآن وذكر الله أجمل من ذكر نبينا والصلاة والسلام عليه وعلى آله وصحبه الكرام، واستحضار جميل أوصافهم وعظيم أفعالهم، ومعرفة كريم وعظيم حقهم علينا، ثم الاشتغال بما هو أداء لذلك الحق وتوطين القلوب على حبهم وتعظيمهم؛ فإن المحبة توجب ذكر المحبوب؛ إذ القلوب مجبولة على الإكثار من ذكر من تحب، وكذلك الذكر موجب وسبيل شرعي في امتلاء القلوب بحب المذكور. فسبحان من ربط بين الأسباب والغايات حتى جعلها جل وعلا من باب واحد في شرعه الكريم.

وأنقل هنا كلاماً للإمام النيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وما أعظم كلام العلماء في بيان الفوائد والثمرات من كلام ربنا وكلام رسوله ﷺ، والربط بين النصوص، واستخراج أجمل الكنوز والثمرات تيسيراً لحسن الفهم، ثم الإتقان في الأداء لمقتضى تلك النصوص.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما جعل الإحسان إلى الوالـدين تاليـاً لعبـادة الله- أي مقروناً مرتبطاً بها ارتباطاً مباشراً بلا فـصل ولا تفـصيل كـما تقـدم ذكره وبيانه - لوجوه منها:

- أنهما سبب وجود الولد كما أنهما سبب التربية، وغـير الوالـدين قـد يكون سبب التربية فقط، فلا إنعام بعد إنعام الله تعـالى أعظـم مـن إنعام الوالدين.
- ومنها أن إنعامهما يشبه إنعام الله تعـالى مـن حيـث إنهـما لا يطلبـان بذلك ثناءً ولا ثواباً.
- ومنها أنه تعـالى لا يمـل مـن إنعامـه عـلى العبـد وإن أتـى بـأعظم الجرائم، فكذا الوالدان لا يقطعان عنه مواد كـرمهما وإن كـان غـير بارٍّ بهما.
- ومنهـا أن الوالـد المـشفق يتـصرف - إن تـصرف - في مـال ولـده بالاسترباح والغبطة، والله سبحانه يأخذ الحبـة فيربيهـا مثـل جبـل أحد.
- ومنها أنه لا كمال يمكن للولـد إلا ويطلبـه الوالـد لأجلـه ويريـده عليه، كما أن الله تعالى لا خير يمكن للعبـد إلا وهـو يريـده عليـه، ولهذا أرسل الرسل وأنـزل الكتـب ونـصب الأدلـة وأزاح العلـة،

ومن غاية شفقة الوالدين أنهما لا يحسدان ولدهما إذا كان خيراً منهما بل يتمنيان ذلك بخلاف غيرهما؛ فإنه لا يرضى أن يكون غيره خيراً منه»[1].

أقول: بل والله كمال سعادتهما في أن يبلغ ولدهما المنزلة الأعلى والتقدم على منزلتهما، والرفعة في جميع الشؤون: من مال، وجاه، وولد، وخير ونعمة، وهذه لا تكون إلا من جهة الأبوة والأمومة تجاه البنوة، ولا تجدها في غيرهما، لا صاحب ولا صديق ولا زوجة ولا أهل ولا ولد.

ومما حفظته منذ كنت في المرحلة المتوسطة أبيات جاءت على ظهر ورقة التقويم بعنوان: قلب الأم، يقول فيها الشاعر:

أَغْرَى امْرؤٌ يَوْماً غُلَاماً جَاهِلاً ... بِنُقُودِهِ حَتَّى يَنَالَ بِهِ الوَطَرْ
قَالَ ائْتِنِي بِفُؤَادِ أُمِّكَ يَا فَتَى ... وَلَكَ الدَّرَاهِمُ وَالجَوَاهِرُ وَالدُّرَرْ
فَمَضَى وَأَغْمَدَ خِنْجَراً فِي صَدْرِهَا ... وَالقَلْبَ أَخْرَجَهُ وَعَادَ عَلى الأَثَرْ
لَكِنَّهُ مِنْ فَرْطِ دَهْشَتِهِ هَوَى ... فَتَدَحْرَجَ القَلْبُ المُعَفَّرُ إِذ عَثَرْ
نَادَاهُ قَلْبُ الأُمِّ وَهُوَ مُعَفَّرٌ ... وَلَدِي حَبِيبِي هَلْ أَصَابَكَ مِنْ ضرر

فليس ثَمَّ ما يقارب ما في قلب الأم وقلب الأب من الحب والحنان

(١) تفسير النيسابوري (١/ ٣٢٣).

والعطف والإحسان وإيصال الخير للولد وإن كان عاقّاً غير بارٍّ بهما، والعاقل من تدبر هذه المعاني وأحسن فهمها وقام بحق أبويه الكريمين من البِرِّ والإحسان ومجانبة الكفران والطغيان.

وإن نصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة وأهل العلم تقرر وتؤكد الإجماع على بر الوالدين برّاً مطلقاً، وأن طاعتهما واجبة على الإطلاق ما لم يأمرا بكفر أو شرك أو بدعة أو إثم، فإن أمرا بذلك فلا طاعة لقول الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ [لقمان: ١٥]، ولقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»[1]، ولما تقرر أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولكن على الرغم من عدم الطاعة والامتثال إلا أن الواجب أن يكون ذلك باللين والإحسان مع مصاحبتهما بالمعروف ولين القول، وليس ذلك إلا للوالدين لعظيم حقهما؛ فلهما في جميع أحوالهما الشأن الخاص المحفوف بالتذلل لهما والخضوع لحاجتهما والرفق واللين في أجلى مظاهره ومعانيه وصوره.

يقول الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على صحيح مسلم: «أجمع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم (٦٧٢٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، رقم (١٨٤٠) من حديث عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

العلماء على الأمر ببر الوالدين، وأن عقوقهما حرام من الكبائر»[1].

وإن النصوص قررت لهما أحكاماً خاصّةً ليست لغيرهما بدءاً بوجوب نفقتهما على ولدهما، ويتأكد الوجوب مع حاجتهما وعدم كسبهما مالاً.

يقول ابن المنذر رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع أهل العلم على أن نفقة الوالدين الفقيرين اللذين لا كسب لهما ولا مال واجبة في مال الولد»[2].

بل إنَّ الأمر أعظم من ذلك؛ فقد روى جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي مالاً وولداً وإن أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: «**أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ**»[3].

بل لقد حرم الله رجوع المسلم في هبته وأُعطيته، واستثنى من ذلك التحريم ما يكون للوالدين؛ فقد روى أصحاب السنن وأحمد مرفوعاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام قوله: «**لَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُعْطِيَ العَطِيَّةَ فَيَرْجِعَ فِيهَا إِلَّا الوَالِدَ فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ**»[4].

(١) (١٦/ ١٠٤).
(٢) المغني (٨/ ٢١٢).
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٢٩١)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٨٣٨).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٣٧)، وأبو داود في سننه (٣٥٣٩)، والترمذي في سننه (٢١٣٢)، والنسائي في سننه (٣٧٠٣)، وابن ماجه في سننه (٢٣٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦٥٥).

وإن الأمر لم يقف عند الأموال والهبات، بل تعداها حتى بلغ ذروة سنام الإسلام، أعني الجهاد كما ثبت فيمن رد رسول الله من الصحابة الكرام لملازمة الوالدين والقيام بأمرهما والسعي والاجتهاد في حاجاتهما، كما مر في النصوص المتقدمة[1].

يقول الإمام ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ **في الفتح**: «يحرم الجهاد إذا منع الأبوان أو أحدهما بشرط أن يكونا مسلمين؛ لأن برهما فرض عين عليه والجهاد فرض كفاية، فإذا تعين الجهاد فلا إذن»[2].

إن الأمر في النصوص أعظم من ذلك في تقرير حقهما برّاً وإحساناً، بل إكراماً وتخصيصاً، فكم فيها من الحث والأمر والترغيب والإرشاد إلى ملازمة الدعاء لهما، وإشراكهما في الدعاء وطلب الخير والرحمة لهما في الدنيا والآخرة، بل وتقديمهما في الدعاء على كل أحد مهما عظم حقه وفضله وإنعامه عليه.

جاء أيضاً الحث على القيام بالطاعات والعبادات عنهما إن كان ديناً عليهما، وكذلك فيما يشرع من العبادات مثل النفقة والصدقة والحج والعمرة وإن لم يكن ديناً وقضاءً عليهما أو واجباً في حقهما؛ فقد ثبت قول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: «**حُجَّ عَنْ أَبِيكَ**

(١) (ص٢٢).
(٢) (٦/ ١٤٠).

وَاعْتَمِر»[1].

إن النصوص تبين وتوضح خصوصيتها في غالب أحوالها مما يؤكد للناظر والمتدبر أن الوفاء بحقها مما يتعذر على العبد مهما بذل وسعى وجاهد واجتهد في نفسه وجاهه وماله، كيف وقد قررت النصوص أن الولد وسائر أعماله وطاعاته وبذله من كسب أمه وأبيه، ومما يكون في موازينها وأعمالها تماماً كما هو في ميزانه وحسناته، فخيره وبره وإحسانه ومعروفه يشتركان معه في كل ذلك، وأما شره ومنكراته فإنها حسبه.

شهد عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما رجلاً يطوف بالبيت حاملاً أمه على ظهره - أي كانت مقعدةً مريضةً - وهو يقول:

إِنِّي لَهَا بَعِيرُهَا الْمُذَلَّلْ إِنْ أُذْعِرَتْ رِكَابُهَا لَمْ أُذْعَرْ

ثم قال: يا ابن عمر، أتراني جزيتها؟ قال رضي الله تعالى عنه وعن أبيه وعن سائر الصحابة: «لا، ولا بزفرة واحدة»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ**»[3].

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٠)، والترمذي في سننه (٩٣٠)، والنسائي في سننه (٢٦٣٧)، وابن ماجه في سننه (٢٩٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد».

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العتق، باب: فضل عتق الوالد، رقم (١٥١٠).

إنَّ تعذر استيفاء حقهما لا يعني التغاضي والتغافل عنهما وعن حقهما، وليس يحسن للعاقل أن يتعلق بذلك، ويراه مُسَوِّغاً للتقصير أو عدم الجد والسعي الدؤوب على برهما وكسب رضاهما . فالله الله يا من تريد الجنة في برهما، وإياك أن تغفل عنهما، أو تنشغل بغيرهما من مال وصاحبة وولد، فضلاً عن غيرهما من صديق أو رفيق؛ فإن الخطب جلل والعاقبة وخيمة، فتدارك نفسك وحظك وعاقبتك فيهما قبل مماتهما، وسارع بالبذل ومعاني الوفاء فيما بقي من حياتهما، قبل أن تفرق الأيام والمنون والقضاء بينكم فتتسابق فيك دموع الندم والحسرة على ما فرطت، وتُمنِّي حينها نفسك بقولك: ليت وليت، ومعلوم أن الحسرة والحزن والدموع لا تأتي بشيء فات أهله عن تقصير وتفريط، والندم لا ينفع ولا يعيد لك شيئاً، وكما قيل: ولات حين مندم، وهيهات أن تفيدك (ليت)؛ فقد قيل قديماً: ليت وهل ينفع شيئاً ليت.

فالبدار البدار، واغتنم خمساً قبل خمس كما أوصاك نبي الهدى والرحمة، فالكَيْس الكَيْس ماداما على قيد الحياة، وما دمت في قوتك وصحتك وقدرتك؛ فإن الكيِّس العاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، أعاذني الله وإياك من العجز والتسويف والإهمال والتفريط والتقصير في حق أصحاب الحقوق جميعاً، وخاصّةً أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك.

وتدبر ما وعظك به رسول الهدى والرحمة ﷺ بقوله: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»[1]. فاجتهد وجاهد أن تكون من أهل العتق والرضوان، وفقنا الله وإياك لكل خير وهدى وفلاح.

وأوصيك ونفسي بالجد على المداومة والتفنن والتنوع في البر والإحسان في كل أمر وشأن وحين وحال، وللذكرى أوصيك أخي في الله بما يلي:

- حسن السلام وكريم التحية، ولين القول في السؤال عنهما، وندائهما بأحب الأسماء إليهما، والتحبب والتودد بترديد وتنغيم الأمومة والأبوة: أماه، يا أمي، أبتاه، يا أبي، ونحوها. ولقد كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه إذا أراد أن يدخل بيته أو يخرج منه وقف على باب أمه فقال: «عليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أمتاه»، ثم يقول: «رحمك الله كما ربيتني صغيراً». فتقول أمه: «يا بني، وأنت فجزاك الله خيراً ورضي عنك كما بررتني كبيراً»[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب: فضل الوضوء، رقم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد».
رضي الله عن أبي هريرة؛ كم كان حريصاً على إسلام أمه ودخولها في دين الله، وكم كان يراودها ويتعاهدها في ذلك رجاء إسلامها، حتى أغضبها يوماً فأسمعته الشتم والسب وقبح الكلام في النبي عليه الصلاة والسلام؛ فبكى وأسرع إلى رسول الله يعتذر عما بدر من أمه، ثم طلب منه أن يدعو الله لها، فكان ذلك، وما أن عاد إلى أمه حتى أعلنت إسلامها؛ فعظمت فرحة أبي هريرة وسعادته، رضي الله عنهم جميعاً.

- الإكثار من الدخول عليهما، والجلوس إليهما، وتقبيل رأسيهما ويديهما ورجليهما، والمبالغة في ذلك كله، وضمهما بلطف وعناية غبّاً.

- التحدث إليهما بالتذلل، وخفض الصوت، ورقة العبارة، ولين الجانب، ووضع الجناح لهما تعبداً وتقرباً . وقد كان ابن سرين عليه رحمة الله إذا كلم أمه يخفض من صوته حتى يظن من رآه أن به مرضاً[1].

- الاستماع إلى حديثهما، وحسن الإنصات إليهما، وإظهار التفاعل والسرور بكلامهما وآرائهما وتعبيراتهما مهما قل وهان وتواضع في رأيك وقناعاتك.

- مشاركتهما في الطعام والشراب والضيافة، وخاصّةً في المناسبات وحضور أصدقائهما وأرحامهما والعزيز لديهما، والاجتهاد في خدمتهما والترحاب بضيوفهما وصديقهما، والمجاهدة في صنع ما يحبان من الطعام، والإحسان وحسن الاستقبال لمن يدخل عليهما من ضيوف أو رحم أوصديق.

(١) أخرجه ابن سعد في طبقاته (٧/ ١٩٨)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص٣٠٦)، والمروزي في «البر والصلة» (١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٧٣).

- الاستئذان عليهما، وعدم الخروج عن حضرتهما ومنزلهما دون علمهما، ومراعاة مشاعرهما مع التحسس عن حاجاتهما ورغباتهما، ثم الجد والسعي في قضائها مظهراً الفرح و السرور مهما شق الأمر عليك وأنه غاية في اليسر، وإياك وإظهار التكلف والتعب والنصب فضلاً عن التأفف والتضجر لطلباتهما ورغباتهما.
- القيام بجميع أعمالهما وواجباتهما، وبادر إلى إنجازها بلا ضجر ولا ملل، بل باشر كل ذلك وأظهر المحبة والسرور في فعله.
- اعرض عليهما الخروج والفسحة، بل وادعهما إلى السفر والسياحة معك وولدك وأهلك، وجِد في ذلك مظهراً الصدق في الطلب وحب ذلك منك ومن زوجك وولدك والفرح به.
- وطن ولدك وزوجتك على برهما والإحسان إليهما وخدمتهما وتعظيمهما وحسن مصاحبتهما وعشرتهما مداعبةً، وملاعبةً، ولیناً في القول، والفرح لفرحهما، والسرور بما يسرهما.
- المحافظة على سمعتهما وسمعة من يحبان من أهل ورحم وصديق، والذب عنهما وعمن يحبان، والدفاع بحسن القول ولين العبارة عنهما وعمن يحبان سرّاً وإعلاناً.
- دوام المجاهدة وكمال السعي في إدخال السرور والبهجة عليهما، ثم

مواصلة تقديم ما يحبان من الهدية وغيرها في حضرك، وعند رجوعك من السفر، وابدأ بهديتهما قبل الزوجة وقبل الولد، وإياك أن تخفي عنهما هداياك لزوجتك وولدك.

- الدعاء والاستغفار لهما في حياتهما، والدعاء لهما بالبركة وطول الأعمار مع كل قول وعبارة، وأسمعهم دعاءك، واقرن عبارتك بالدعاء لهما بطول العمر والصحة والسلامة؛ فإنهما يحبان سماع ذلك وسيردونه عليك بأجمل وأعظم من ذلك، بل وإنه لأحرى بالقبول من دعائك أنت عند الله تعالى.

هذا في حياتهما، وأما بعد مماتهما فأكثر وبالغ في الدعاء والاستغفار لهما وفي برهما فيمن يحبان وأرحامهما وصديقهما، وجاهد في إكرام أولئك جميعاً وزيارتهم برّاً بأبويك، وإياك والانقطاع والتكاسل والعجز؛ فإن الحق عظيم، والدَّيْن الذي عليك ثقيل، والأمانة التي تحملها قد أشفقت منها السموات والأرض والجبال الراسيات؛ فإياك إياك أن تعجز أو تمل، بل وطِّن نفسك واستعن بأهلك - زوجتك وولدك - في التعاون على بر الوالدين، وعدم الانقطاع عنهما، وعدم الاشتغال عنهما بغيرهما؛ فإن المرء ضعيف بنفسه قوي بإخوانه وأهله، والْجأ إلى الله ليعينك ويوفقك وييسر لك سبل الهدى وطرق برهما وأداء شي من حقهما العظيم.

واعلم بل وضع نصب عينيك ما جاء في النصوص من الوعد الكريم والثمرات الجميلة والآثار النافعة في الدنيا والآخرة لمن بر والديه . وكذلك ضع نصب عينيك ما جاء في النصوص من سوء العاقبة والضرر الوخيم والإثم العظيم والجرم الكبير لمن عق والديه وتشاغل بالصديق والزوجة والأولاد والأموال عنهما، وأضاع حقهما، فضلاً عمن والعياذ بالله أساء إليهما، وشق عليهما، وأضر بهما، وأغضبهما، وأحزنهما، وأبكاهما، والويل ثم الويل لمن اشتغل والديه بالدعاء عليه، وأنى له أن يسعد في حياته وبعد مماته؟ إن ذلك والله هو الخسران المبين؛ فقد فتح على نفسه أعظم أبواب الشقاء والعذاب، وأغلق على نفسه أبواب رحمة الله، فالحذر الحذر، وتَطَلَّعْ إلى جميل وعد الله وكريم ثوابه في الدنيا والآخرة.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ**»[1].

وأذكرك ونفسي أن من أعظم ثمرات بر الوالدين غفران الذنوب، ومحو الخطايا والسيئات، وقبول التوبة والإنابة من الله تعالى لعبده،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢٥٨)، والترمذي في سننه (١٩٠٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٣١).

وليس والله في الدنيا أعز وأعظم من نيل هذه الثمرة؛ فما أعظم ذنوبنا، وما أكثر سيئاتنا، وما أحوج العبد إلى قبول توبته وإنابته، وعفو الرب وغفرانه لزلاته وسيئاته.

روى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما وعن سائر الصحابة أنه أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، أذنبت ذنباً كبيراً فهل لي توبة؟ فقال له رسول الله: «**أَلَكَ وَالِدَانِ**»؟ قال: لا . قال: «**فَلَكَ خَالَةٌ**»؟ قال: نعم . فقال رسول الله: «**فَبِرَّهَا إِذاً**»(١).

وعنه رضي الله تعالى عنه أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبدالله وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامةً كانت على رأسه، فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله، إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير . فقال عبدالله: إن أبا هذا كان ودّاً لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَبَرَّ البِرِّ صِلَةُ الوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ**»(٢).

تدبر سعة رحمة الله، فالبر بالوالدين هو الأصل، ثم يتعدى توسعاً إلى الأرحام والصديق، فما أعظم بر يتعدى أهله إلى كل محبوب لديهم.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٧١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٥٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب: فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما، رقم (٢٥٥٢).

وتدبر ما كان من الصحابي الجليل ابن الصحابي الجليل ﷺ من التأدب والتفاعل مع الوعد والوعيد، ومع الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، بعد حسن الاستماع والإنصات والتلقي عن رسول الهدى والرحمة.

ومن عظيم الثمرات التي يصبو إليها المرء ويتطلع إليها، بل والله يتنافس فيها العقلاء والفضلاء ويجاهدون في نيلها، أعني استجابة الدعاء، فإن أكثر ما يجتهد فيه الداعون إلى الله تعالى، ويرفعون أكفهم وأصواتهم يرجون الإجابة استجلاباً لخير الدنيا والآخرة، ويجتهدون في بذل جميع الأسباب الموجبة لإجابة الله تعالى لدعائهم، ويتخيرون أوقات الإجابة وساعاتها ومواطنها وأوقاتها، وجميع أسبابها في المطاعم والمشارب والأحوال، لا يريدون بذلك إلا الاستجابة، ولقد تقرر في النصوص أن بر الوالدين من أعظم هذه الأسباب الموجبة للإجابة.

روى ابن عمر ﷺ عن رسول قال: «**بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ أَخَذَهُمْ المَطَرُ فَمَالُوا إِلَى غَارٍ فِي الجَبَلِ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِن الجَبَلِ فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا للهِ صَالِحَةً فَادْعُوا اللهَ بِهَا لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا.**

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَلِي صِبْيَةٌ

صِغَارٌ كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِي، وَإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ فَجِئْتُ بِالحِلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ . فَفَرَجَ اللهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّى يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ». ثم دعا الثاني والثالث، ففرج الله عنهم، وانزاحت الصخرة وخرجوا من الغار[1].

لله درُّ أصحاب القصة ما أفقههم في دين الله؛ حيث علموا ألَّا نجاة من الهلاك إلا بالدعاء بصالح الأعمال، والتوسل إلى الله جل وعلا بما شرع سبحانه . ثم لله درُّ برِّ الرجل بوالديه، وما أعظم صدقه وإحسانه وإتقانه في برهما؛ لا يُغبق أحداً قبلهما، لا زوجةً ولا ولداً، ولا يطلب مالاً ولا بيعاً ولا ربحاً قبل والديه، ثم يكره إيقاظهما وقد جاء بعد نأي الطلب والرعي به، فلا شك أنه في غاية من الإعياء والنَّصَب، ويظل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: إجابة دعاء من برَّ والديه، رقم (٥٦٢٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم (٢٧٤٣).

رغم ذلك واقفاً حاملاً غبوقهما على يديه ينتظر استيقاظهما حتى طال به المقام إلى طلوع الفجر واقفاً تعباً، والزوجة والصبية حوله يتضوَّرون ويصيحون جوعاً وألماً، فما شرب هو، ولا سقى أهله وولده، حتى استيقظ الوالدان الكريمان فسقاهما، فلله دره وصبره في بره بأبيه وأمه.

وأختم بثمرة ثالثة وما أكثر الثمرات والمنافع الدنيوية والأخروية في بر الوالدين، وهذه ثالثة الأثافي، ولَكَمْ يتشوق إليها الخلق والعباد، وتلهج بها ألسنتهم طلباً لها وحبّاً، أعني بذلك الزيادة في الأعمار وطولها، والوفرة في الأرزاق والأموال.

روى أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمْرِهِ وَيُزَادَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلْيَبَرَّ وَالِدَيْهِ وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(١).

إن مما يشترك فيه الخلائق على اختلاف أعمارهم وألوانهم وأجناسهم وأحوالهم هو حبهم للزيادة في الأعمار والأرزاق، ومن ذا الذي لا يسره ذلك؟ بل ما زالوا يطلبونها ويجتهدون في الدعاء بها سواء في ذلك فقيرهم وغنيهم، حقيرهم وأميرهم، صغيرهم وكبيرهم، بل كلما ازداد المرء كِبَراً ازداد لها طلباً وعليها حرصاً.

هذه بعض الثمرات التي تثمرها هذة الطاعة وهذا الواجب، وما

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣٦٦)، وحسنه الألباني لغيره في «صحيح الترغيب» (٢٤٨٨).

أعظمها؛ فليس أحب إلى المرء من عفو ربه الباري، ومحو ذنوبه وخروجه من الخطايا نقيّاً تقيّاً، ثم استجابة دعائه بتوسله بجميل بره وإحسانه إلى والديه، فما زال أهل الإيمان سلفاً وخلفاً يفرحون بإجابة الدعاء، ويعظمون من اشتهر بذلك، وينظرون إلى هذه المرتبة نظرة إعجاب ويتمنونها.

وليس أعظم ما يقف عنده المرء من قصة أويس القرني رحمه الله تعالى؛ فكم فيها من العظات والعبر، ولفتات الاقتداء والأثر لجميل حاله وقبول دعائه، والذي إنما بلغه بعد توفيق الله عز وجل له ببره بأمه حتى عوَّضه الله بتلك الكرامة؛ لأن بره بأمه حال دون دخوله في سلك وعداد الصحابة الكرام . ولقد حفظ رسول الله ﷺ له ذلك، فنادى ورغَّب الصحابة رضي الله تعالى عنهم بالاعتناء به، والسؤال عنه، وطلب الدعاء منه . ولله در الصحابة في حرصهم على الخير، ولله در عمر بن الخطاب الأمير الفاروق الذي كان غايةً في الحرص على السؤال عنه في قوافل أهل اليمن الكرام حتى لقيه، فبشره بما سمعه من رسول الله ﷺ، وطلب منه الدعاء فدعا له . ولله دره كم بكى وأبعد بعد ذلك مخافة الفتنة والشهرة.

وعن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«نِمْتُ فَرَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ، فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِئٍ يَقْرَأُ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟**

قَالُوا: هَذَا حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَذَلِكَ البِرُّ، كَذَلِكَ البِرُّ، وَكَانَ أَبَرَّ النَّاسِ بِأُمِّهِ»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجت من بيتي يوماً ما أخرجني إلا الجوع، فجئت المسجد فوجدت نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: ما أخرجك هذه الساعة؟ فقلت : أخرجني الجوع . قالوا : ونحن ما أخرجنا إلا الجوع . فقمنا فدخلنا على رسول الله ﷺ فقال: «**مَا أَخْرَجَكُمْ هَذِهِ السَّاعَةِ**»؟ قلنا: أخرجنا الجوع . فدعا بطبق فيه تمر فأعطى كل رجل تمرتين فقال: «**كُلُوا هَاتَيْنِ التَّمْرَتَيْنِ وَاشْرَبُوا عَلَيْهِ مِنَ المَاءِ؛ فَإِنَّهُمَا سَيُجْزِيَانِكُمْ يَوْمَكُمْ هَذَا**» . قال أبو هريرة: فأكلت تمرةً وخبأت تمرةً في حجري، فرآني لما رفعت التمرة فسألني فقلت: رفعتها لأمي . قال : «**كُلْهَا؛ فَإِنَّا سَنُعْطِيكَ لَهَا تَمْرَتَيْنِ**»[2].

وروى محمد بن سيرين قال: بلغت النخلة على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ألف درهم، فعمد أسامة بن زيد إلى نخلة فنقرها وأخرج جُمَّارَها[3] فأطعمها أمه، فقالوا له: ما حملك على هذا وأنت ترى

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ١٥١،١٦٦)، والحاكم في «المستدرك» (٧٢٤٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩١٣).

(٢) أخرجه ابن سعد في طبقاته (٤/ ٣٢٨-٣٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٣١٩)، وابن عساكر في تاريخه (٦٧/ ٣٢٢).

(٣) جمّار النخلة: قلبها . انظر: «اللسان» (٤/ ١٤٧).

النخلة قد بلغت ألفاً؟ فقال: «إن أمي سألتنيه، ولا تسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتها»(١).

وكان عروة بن الزبير رضي الله عنه **يقول في صلاته وهو ساجد:** «اللهم اغفر للزبير بن العوام ولأسماء بنت أبي بكر»(٢).

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: «مكث عامر بن عبد الله بن الزبير بعد قَتْلِ أبيه حَوْلاً لا يسأَل أحداً لنفسه شيئاً إلا الدعاء لأبيه»(٣).

وقيل لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: أنت من أبر الناس ولا نراك تؤاكل أمك. قال: «أخاف أن تسير يدي إلى ما قد سبقت عينها إليه فأكون قد عققتها»(٤)!

وهذا طَلْق بن حبيب رحمه الله كان لا يمشي فوق ظهر بيت أمه تحته؛ إجلالاً لها(٥).

وكان حيوة بن شريح – وهو أبو زرعة، شيخ الديار المصرية(٦)–

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ١٥٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦٨٩).
(٢) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٢/ ٤٤٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ٢٠١).
(٣) أخرجه ابن عبدالبر في «الاستيعاب» (٣/ ٩١٠).
(٤) عيون الأخبار (٣/ ١١١).
(٥) بر الوالدين لأبي بكر الطرطوشي (٥١).
(٦) وهو الذي كان يقول عنه عبدالله بن المبارك رحمه الله: «مَا وُصف لي أحد إِلَّا وجدته عند اللقاء أقل مما وصف لي إِلَّا حَيْوَة بن شُرَيْح». الثقات لابن حبان (٦/ ٢٤٧).

يقعد في حلقته يُعلم الناس، فتقول له أمه : قم يا حيوة؛ فألق الشعير للدجاج. فيقوم ويترك التعليم[١].

وهذا ابن عون رَحِمَهُ اللَّهُ نادته أمه فأجابها فَعَلَا صوتُه صوتَها، فأعتق رقبتين[٢]!

وعن عبدالله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ **قال: قال محمد بن المنكدر**: «بتُّ أغمز رجل أمي وبات عمر يصلي، وما يسرني أن ليلتي بليلته»[٣].

وسئل الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ **عن بر الوالدين فقال**: «أن تبذل لهما ما ملكت، وأن تطيعهما فيما أمراك به إلا أن تكون معصية»[٤].

وهذا بندار محمد بن بشار رحمه الله تعالى - قال عنه الذهبي: جمع حديث البصرة، ولم يرحل برّاً بأمه[٥]- قال: «أردت الخروج- يعنى السفر - في طلب الحديث فمنعتني أمي؛ فأطعتها ولم أخرج؛ فبورك لي فيه»[٦].

(١) بر الوالدين لأبي بكر الطرطوشي (٥٢).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٩).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (ص٨٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٥٠).
(٤) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٥/ ١٧٦).
(٥) سير أعلام النبلاء (١٢/ ١٤٤).
(٦) أخرجه الخطيب في تاريخه (٢/ ١٠١).

وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في سفره كتاباً إلى والدته يقول فيه: «تعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا.

ولسنا والله مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم- ولله الحمد - ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهرًا واحدًا، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، وادعوا لنا بالخيرة، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية ...**فلا يظن الظان أنّا نؤثر على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه،** ولكن ثمَّ أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب...»[1].

رحمهم الله ورضي عنهم، ورزقنا حبهم وتعظيمهم، وحسن الاقتداء بهم، وتقفي آثارهم في جميع شأنهم وفي برهم بوالديهم.

اللهم يا ولي الإسلام وأهله، ثبتنا عليه حتى نلقاك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه أجمعين.

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٩).